هل يُمكِن أن تكون العَوْلَمة جِسْرًا بين الشَّرق والغربِ؟ هل يُمكِن أن تكون العَوْلَمة جِسْرًا بين الشَّرق والغربِ؟

محمد قُرَيْشِي شِهَاب(*)

قبلَ كلِّ شيءٍ أحبُّ أن أتقدَّمَ بالشكرِ الجزيلِ،والثناءِ الجميلِ لجميعِ القائمينِ بهذا الملتقى، وأخصُّ بالذِّكرِ صاحبَ البيتِ الذي استقبَلَنا بالحفاوةِ، وأشعَرَنا بأنَّنا نعيشُ في جوٍّ مِن الإخاءِ والتفاهمِ البنَّاءِ، الذي إن دلَّ على شيءٍ فإنَّما يدُلُّ على قدرتِنا على التعايُشِ البنَّاءِ والتكاملِ فيما بينَنا.

أيُّها الإخوةُ:

قديمًا وقبلَ عصرِ العولمةِ ببعيدٍ أكَّدَ كتابُ الإسلامِ على ضرورةِ التعاونِ بينَ الناسِ جميعًا بمختلفِ أجناسِهم ومعتقداتِهم بقولِه تعالى: ُ÷ ّ » « { ü } ! [المائدة: ٢] وقد شبَّه نبيُّ الإسلامِ محمَّدٌ صلى الله عليه وسلم الناسَ في الحياةِ الدُّنيا برُكَّابِ سفينةٍ واحدةٍ تضُمُّ طابقينِ، بعضُهم أعلاها، وبعضُهم أسفلَها، فكان الذين في أسفلِها إذا استقَوا مِن الماءِ مرُّوا مِن فوقِهم، فقالوا: لو أنَّا خرَقنا في نصيبِنا خَرْقًا ولم نؤذِ مَن فوقَنا؛ «فإنْ ترَكُوهم وما أرادُوا هلَكُوا جَميعًا وإن أخَذُوا على أيْدِيهم نَجَوا ونَجَوا جَميعًا»(*).

هذا التشبيهُ يصوِّرُ قصدَ الساكنينَ أسفلَ السفينةِ في عدمِ إيذاءِ مَن أعلاها، ولكنَّ طريقتَهم لنيلِ المياهِ بخرقِ السفينةِ يؤدِّي إلى الغرقِ وهلاكِ الجميعِ، إلا إذا قامَ المصلحون بواجبِهم في منعِ الطامعينَ لنيلِ رغبتِهم على حسابِ الآخرينَ.

واليومَ في عصرِ العولمةِ، والذي قيل بحقٍّ إنَّه العصرُ الذي قرَّبَ المسافاتِ وجعَلَ الأرضَ قريةً صغيرةً -أو حسبِ تعبيرِ نبيِّ الإسلامِ: يعيشُ الناسُ في سفينةٍ واحدةٍ- اليومَ ما أحرانا أن نتعاونَ في إنقاذِ السفينةِ مِن الغرقِ، وإنَّكم أيُّها السادةُ في مقدِّمةِ المسئولينَ للقيامِ بمهمَّةِ الإنقاذِ.

أيُّها الإخوةُ:

قديمًا قيل: «إنَّ الشرقَ شرقٌ والغربَ غربٌ، ولن يلتقيا»... وقد تكونُ المقولةُ صائبةً حينئذٍ -أعني قبلَ عصرِ العَولمةِ- لكن بما أنَّ العولمةَ قد بدَّلَت وغيَّرَت كثيرًا مِن الأمورِ والمفاهيمِ فإنَّ تلك المقولةَ لم يعُد ينبغي أن يكونَ لها مكانٌ ... قد يكونُ للمقولةِ بعضُ العذرِ إذا اتَّجهت أنظارُنا إلى الماضي السحيقِ وإلى أسماءِ المبدعينَ في الشرقِ والغربِ واهتماماتِهم المختلفةِ. فلا يخطُرُ على البالِ عندَ ذكرِ أسماءِ كونفشيوس، ومهابراتا، وبوذا مِن الشرقِ، إلا أنَّهم يُولُونَ اهتمامَهم على جانبِ الحَدْسِ والحِكمةِ الروحيةِ، بينما إذا ذُكرَ فلاسفةُ اليونانِ -كسقراط وأفلاطون وأرسطو- قُذِفَ إلى الأذهانِ عملُ العقلِ ونتائجُه مِن الفلاسفةِ.

قد يكونُ للمقولةِ شيءٌ مِن الصوابِ إذا ما قورِنَتِ الألفاظُ المستخدمةُ مِن الجانبينِ عندما يعبِّرون عن بناتِ أفكارِهم... فالشرقيُّ غالبًا ما يقولُ: أحسُّ أو أشعرُ (I feel) بينما يقولُ الغربيُّ: أفكِّرُ (I think) إنَّ الغربيَّ يستدِلُّ على وجودِه بوجودِ تفكيرِه: «أنا أفكِّرُ فإذَن أنا موجودٌ» على رأيِ ديكارت.

على كلٍّ، كلُّ ذلك قد مضَى وانقضَى، وها نحنُ نعيشُ عصرَ العولمةِ بمتغيِّراتِها التي تحتِّمُ علينا القيامَ بإقامةِ جسرٍ يربِطُ الشرقَ والغربَ ليلتقيا، يربِطُ بينَ العقلِ والروحِ في جانبٍ، والتفكيرِ والوجدانِ في جانبٍ آخَرَ، وقديمًا في الإسكندرية عن طريقِ الفلسفةِ الأفلاطونيةِ اجتمَعَت ما ليس بقليلٍ مِن عناصرِ العقلِ والتفكيرِ بعناصرِ الروحِ والوجدانِ.

أيُّها السادةُ، لا نعني بإقامةِ هذا الجسرِ محوَ الفوارقِ أو تجاهلَها؛ فليس مِن حقِّ أيَّةِ دولةٍ أو شعبٍ، فضلًا عن تنظيمٍ- الحقُّ في فرضِ إرادتِه... فإنَّ كلَّ شعبٍ وكلَّ جماعةٍ وكلَّ فردٍ في أيِّ مجتمعٍ مِن المجتمعاتِ يعتَزُّ بقيَمِه وأخلاقياتِه وإيمانِه وثقافتِه -مهما كانت مناقضتُها للآخَرينَ، ومهما كان رفضُ الآخرينَ لها- فالإنسانُ في ظلِّ العولمةِ وحقوقِ الإنسانِ، وفي ظلِّ حقِّه في التعبيرِ والعقيدةِ التي يؤمِنُ بها له الحقُّ كلُّ الحقِّ في الاستمساكِ بتلك الأمورِ، مِن حقِّه أن يقبَلَ أو يرفُضَ أيَّ موقفٍ أو عملٍ أو مبدأٍ أو ثقافةٍ مُغايِرةٍ لمفاهيمِه وعقيدتِه وقناعاتِه ودينِه، ولا يجوزُ لأيِّ فريقٍ نفيُ الآخَرِ- مهما كبُرَ أو صغُرَ حجمُه، ومهما كانت قناعاتُه مِن الخطأِ أو الصوابِ- ولكن على الرغمِ مِن كلِّ ذلك فليس لأيِّ فردٍ أن يَشتُمَ أو يحتقِرَ معتقداتِ ومبادئَ وثقافةَ الآخَرينَ.

اسمحوا أن أتلوَ لكم آيةً مِن القرآنِ الكريمِ، يقولُ تعالى مرشِدًا جميعَ المسلمين أينما كانوا: [ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم كذلك زينا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون] [الأنعام: ١٠٨]، فعلى الرغمِ ممَّا يعتقِدُه المسلمون مِن قُبحِ عبادةِ الأصنامِ ومخالفتِها الصريحةِ للعقلِ السليمِ - إلَّا أنَّ اللهَ منَعَ المسلمَ مِن شتمِها؛ ذلك لأنَّ عُبَّادَها يعتقِدون بحُسنِها.

على الرغمِ مِن مطالبةِ كلِّ دينٍ لمعتقديهِ أن يؤمِنَ بصوابِ اعتقادِه إيمانًا راسخًا، إلَّا أنَّ الإسلامَ -في سبيلِ التعايشِ والسلامِ المجتمعيِّ- أمرَ أن يُفوِّضَ الحُكمُ بالصوابِ أو الخطأِ إلى اللَّهِ تعالى يومَ يبعثُ الناسَ بعدَ موتِهم، يقولُ تعالى: [قل من يرزقكم من السماوات والأرض قل الله وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين * قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون * قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم] [سبأ: ٢٤-٢٦].

وهكذا كلُّ أمةٍ أو مجتمعٍ لهم عاداتُهم وتقاليدُهم التي يجِبُ احترامُها -وإن كان الاحترامُ لا يعني قبولَها.

هذا موقفُ الإسلامِ من عبَّادِ الأوثانِ، وأمَّا موقفُه إزاءَ الأديانِ السماويةِ؟ فمِن إرشاداتِه قولُه تعالى: [ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز] [الحج: ٤٠].

إنَّ مِن أغراضِ تشريعِ اللهِ لسُنَّةِ التدافعِ -حسبَ هذه الآيةِ- الدفاعَ عن استمراريةِ وجودِ أماكنِ عبادةِ اليهودِ والنصارى مِن صوامعَ وبِيَعٍ وصَلَواتٍ، استمراريةِ وجودِها جنبًا إلى جنبٍ مع المساجدِ ... ففي تلك الأماكنِ المقدَّسةِ كلِّها -حسبَ هذه الآيةِ- يُرفعُ اسمُ اللهِ القويِّ العزيزِ.

ولقد أثبَتَ رسولُ الإسلامِ هذه الحقيقةَ في كثيرٍ مِن مواقفِه، مِن بينِها وعدُه صلى الله عليه وسلم لنصارى نجرانَ الذي أكَّدَ فيه سريانَ وعدِه لجميعِ النصارى في جميعِ الأزمانِ والأماكنِ. وقد تضمَّنَ الوعدُ أكثرَ مِن عشرةِ بنودٍ، وفيما يلي بعضُ نصوصِها(*):

أولًا: «أن أحميَ جانبَهم -أي: النصارى- وأذبَّ عنهم وعن كنائسِهم وبيَعِهم وبيوتِ صلواتِهم ومواضعِ الرُّهبانِ ومواطنِ السُّيَّاحِ، حيث كانوا مِن جبلٍ أو وادٍ أو مغارٍ أو عمرانٍ أو سهلٍ أو رملٍ».

ثانيًا: «أن أحرُسَ دينَهم وملَّتَهم أينما كانوا؛ مِن برٍّ أو بحرٍ، شرقًا وغربًا، بما أحفظُ به نفسي وخاصَّتي، وأهلَ الإسلامِ مِن ملَّتي».

ثالثًا: «أن أدخلَهم في ذمَّتي وميثاقي وأماني مِن كلِّ أذًى أو مكروهٍ أو مئونةٍ أو تبعةٍ، وأن أكونَ مِن ورائِهم، ذابًّا عنهم كلَّ عدوٍ يريدُني وإيَّاهم بسوءٍ، بنفسي وأعواني وأتباعي وأهلِ ملَّتي ...».

رابعًا: «أن أعزِلَ عنهم الأذى في المؤنِ التي حملَها أهلُ الجهادِ مِن الغارةِ والخراجِ، إلَّا ما طابَت به أنفسُهم، وليس عليهم إجبارٌ ولا إكراهٌ على شيءٍ مِن ذلك».

خامسًا: «لا تغييرَ لأسقفٍ عن أسقفيَّتِه، ولا راهبٍ عن رهبانيَّتِه، و لا سائحٍ عن سياحتِه، ولا هدمِ بيتٍ مِن بيوتِ بيَعِهم، ولا إدخالِ شيءٍ مِن بنائِهم في شيءٍ مِن أبنيةِ المساجدِ، ولا منازلِ المسلمين؛ فمَن فعلَ ذلك فقد نكَثَ عهدَ اللهِ، وخالَفَ رسولَه، وحالَ عن ذمَّةِ اللهِ».

سادسًا: «ألَّا يحمِلَ الرُّهبانُ والأساقفةُ، ولا مَن تعبَّدَ منهم، أو لبِسَ الصُّوفَ، أو توحَّدَ في الجبالِ والمواضعِ المعتزلةِ عن الأمصارِ -شيئًا مِن الجزيةِ أو الخراجِ...».

سابعًا: «لا يُجبرُ أحدٌ ممَّن كان على ملَّةِ النصرانيةِ كرهًا على الإسلامِ: [ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن] [العنكبوت: ٤٦]، ويُخفضُ لهم جناحُ الرحمةِ، ويُكفُّ عنهم أذى المكروهِ حيث كانوا وأين كانوا مِن البلادِ».

ثامنًا: «إن أجرَمَ واحدٌ مِن النصارى أو جنَى جنايةً، فعلى المسلمينَ نصرُه، والمنعُ والذَّبُّ عنه، والغُرمُ عن جريرتِه، والدخولُ في الصلحِ بينَه وبينَ مَن جنَى عليه: فإمَّا مُنَّ عليه، أو يُفادَى به».

تاسعًا: «لا يُرفضوا ولا يُخذلوا ولا يُتركوا هَمَلًا؛ لأنِّي أعطيتُهم عهدَ اللهِ على أنَّ لهم ما للمسلمينَ، وعليهم ما على المسلمينَ».

عاشرًا: «على المسلمينَ ما عليهم بالعهدِ الذي استوجَبوا حقَّ الذِّمامِ، والذبَّ عن الحُرمةِ، واستوجَبوا أن يُذبَّ عنهم كلُّ مكروهٍ؛ حتى يكونوا للمسلمينَ شركاءَ فيما لهم، وفيما عليهم».

حاديَ عَشَرَ: «لهم إن احتاجوا في مرَمَّةِ - ترميمِ - بيَعِهم وصوامعِهم، أو شيءٍ مِن مصالحِ أمورِهم ودينِهم، إلى رفدٍ مِن المسلمينَ وتقويةٍ لهم على مرَمَّتِها - ترميمِها- أن يُرفَدوا على ذلك ويُعاونوا، ولا يكون ذلك دَينًا عليهم، بل تقويةً لهم على مصلحةِ دينِهم ووفاءٍ بعهدِ رسولِ اللَّهِ: موهبةً لهم ومنَّةً للَّهِ ورسولِه عليهم.

هذا هو موقفُ الإسلامِ للنصارى أينما ومتى كانوا.

أيُّها السادةُ، على الرغمِ مِن أنَّ كلَّ دينٍ -بما فيه الإسلامُ- يحتِّمُ على مُعتقِدِه وجوبَ الإيمانِ والتصديقِ القلبيِّ لِما قرَّرَه دينُه، إلَّا أنَّ الإسلامَ -حرصًا على التعايشِ السلميِّ والأمنِ المجتمعيِّ- أمرَ معتقديهِ أن يصرِّحَ لمعتقِدي الأديانِ جميعًا: [قل من يرزقكم من السماوات والأرض قل الله وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين * قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون * قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم] [سبأ: ٢٤-٢٦].

أيُّها السادةُ، هذا ... ولا ننكرُ وجودَ اختلافاتٍ بيننا، ولكن لا شكَّ أنَّ هناك مسائلَ كثيرةً اتَّفَقنا عليها وأخرى لم نتَّفِق عليها، لكن في الإمكانِ الاتِّفاقُ عليها إذا خلَصَت النِّياتُ واسترشَدَ كلٌّ منَّا بوصايا أنبياءِ اللَّهِ ... فالأنبياءُ كما يقولُ نبيُّ الإسلامِ: «أولادُ علَّاتٍ»(*) يعني هم إخوةٌ مِن أبٍ واحدٍ وأُمَّهاتٍ شتَّى؛ فالدِّينُ واحدٌ وهو عبادةُ اللهِ وحدَه لا شريكَ له، وإن تنوَّعَتِ الشرائعُ التي هي بمنزلةِ الأُمَّهاتِ.

وتوجَدُ مِن خلالِ العولمةِ مجالاتٌ عدَّةٌ وفرصٌ سانحةٌ للتعاونِ بينَ الشعوبِ والمجتمعاتِ لإثباتِ قدرةِ أبناءِ هذا العصرِ في التعايشِ السِّلميِّ البنَّاءِ.

لا أُنكِرُ أنَّ إقامةَ الجسرِ بينَ الشرقِ والغربِ والسَّعيَ للتعايشِ بينَ الشعوبِ وأصحابِ الدياناتِ -ليس بهيِّنٍ؛ ذلكم لأنَّ مِن واقع مجتمعاتِنا يوجَدُ أناسٌ يزعمونَ أنفسَهم مُمثِّلينَ للإسلامِ أو مُدافِعينَ للإنسانيةِ، مع أن الإسلامَ والإنسانيةَ بُرآءُ منهم ... إنَّ كثيرًا مِن الأفلامِ المعروضةِ على شاشاتِ التلفزةِ والسينما لا تُمثِّل واقعَ المجتمعاتِ الغربيةِ، كما أنَّ بعضَ ما كُتبَ عن الإسلامِ ونُشرَ لا يصوِّرُ الحقيقةَ الكاملةَ، لكن -ويا لَلأسفِ- غُرِّرَ المشاهدون وانخدَعَ القُرَّاءُ.

بعدَ كلِّ ما عرَضنا يأتي السؤالُ: كيف و بماذا نبدأُ؟ لعلي لا أُجانِبُ كبدَ الصوابِ إذا قلتُ: لنبدأَ بالسهلِ والمعروفِ بينَ الناسِ: [خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين] [الأعراف: ١٩٩]. بهذا النصِّ أَمرَ محمدٌ صلى الله عليه وسلم رسولُ الإسلامِ.

مِن بين ما يعني هذا الأمرُ ألّا نطالبَ بما يُثقِلُ، وأن نتلقَّى السهلَ مِن أخلاقِ الناسِ، وأن نأمرَ بالمعروفِ المتعارفِ المقبولِ بينَ الناسِ، ولا شكَّ أنَّ مِن بين المعروفِ: حقوقَ الإنسانِ، وإقامةَ العدلِ؛ بحيث لا نَكيلُ الناسَ بمكيالينِ مختلفينِ، ثمَّ نعرِضُ عن الجاهلينَ بمنجِهم السلامَ السلبيَّ:ُو ى ي ّْ ِ [الفرقان: ٦٣] هكذا مدَحَ اللهُ عبادَه.

إنَّ القرآنَ الكريمَ حينما تحدَّثَ عن الأخوةِ قرَنَ إرشادَه عنها بعدةِ نواهٍ باستعمال: «لا» ونادى بقولِه: [يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون * يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم * يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير] [الحجرات ١١- ١٣].

وعلى ضوئِه أمرَ نبيُّ الإسلامِ محمدٌ صلى الله عليه وسلم أتباعَه بقولِه: «لا تَحاسَدُوا، ولا تَناجَشُوا، ولا تَباغَضُوا، ولا تَدَابَرُوا، ولا يَبِع بَعضُكم على بَيعِ بَعضٍ، وكُونوا عِبادَ اللهِ إخوانًا»(*). ويقولُ الحكماءُ: إذا كنتَ لا تستطيعُ أن تعطيَ الناسَ فلا تأخُذْ حقَّهم ... وإذا كنتَ لا ترضَى بمدحِهم فإيَّاك أن تشتمَهم، وإذا كنتَ لا تستطيعُ أن تساعدَهم؛ فتجنَّبْ أن تضرَّهم... وهلُمَّ جرًّا.

أيُّها السادةُ، أشكرُكم على حُسنِ استماعِكم، والسلامُ عليكم ورحمةُ اللهِ وبركاتُه.

* * *